تمثلات المدينة في ديوان (أنا والموصل) للشاعر حيدر محمود عبدالرزاق

الكلمات المفتاحية : المدينة ، الموصل ،حيدر محمود

م.م. غسان عزيز رشيد
جامعة الموصل/كلية التربية للعلوم الصرفة
Ghas2768@gmail.com

الملخص

دراستنا للمدينة في شعر الشاعر حيدر محمود لا تقتصر على وصف المدينة بطابعها التقليدي المعروف، ولكن الدراسة تتجه نحو فاعلية المدينة بوصفها ذاتا يعيشها الشاعر، ويلتقي معها كمنتج حضاري يتناسق مع الحس الشاعر بتفاصيل أدق وأعمق.

مدينة الموصل وماتحتمل هذه الكلمة من مرجعيات حضارية وثقافية عريقة جدا...تمثل لدى الشاعر الوطن كله وبكل تفاصيله، وكأنها مدينة تكونت من مدن عدة، اذ قامت في نشآت قديمة جدا، وتعرضت للدمار والخراب، ومن ثم القيام من جديد بعد تحديثات هذه العوامل فيها وفي انسانها ،وتتعرض الدراسة ايضا الى قدرة المدينة بوصفها مكانا اجتماعيا قادرا على تحمل تقلبات احوال الذات الانسانية وماتحمله من عواطف واحاسيس ،بتقلب وضعها الوجودي المهدد على مر العصور... ويركز الشاعر حيدر محمود عواطفه الجياشة في صور فنية باذخة في التأمل الاليم في واقع المدينة التي يعدها المهد والأُم ، والرمز، والهوية ،وارض الشمس والجمال ..وهو ينظر خرابها في العهد المظلم الجديد، على يد برابرة العالم الجدد .

يتكون البحث من محاور عدة ، محاولة من الباحِثِ مقاربة النصوص نقديا كمتلق للنص، باحثا عن مواطن الجمال فيه ...من خلال استبطان ذات الشاعر وما تمثله المدينة الموصل.

توطئة

ليس ثَمَةَ فرقٌ كبير بين الامكنة وبين عشاقها، فحيدر محمود هو الموصل، والموصل هي حيدر محمود، وفي هذا الديوان بالذات، إذ هي الحاضنة لحياته دوماً، رغمَ ما أَصابها من الاوجاع والآلام والكوارث، انها الموصل في هذا الديوان بؤرة حُبّه الطافح بقوة التشويق والاثارة، والقرابة، أذ المتصفح لهذا الديوان (انا والموصل) يجد نفسهُ داخل مرثية كبرى لها بداية وليس لها نهاية، انهُ يعيش في المدينة التي لا يقتصر وجودها على البعد الطوبغرافي،

وهذا الوجود لايعنيه كثيراً، بل يبحث عن وجود آخر داخل قيمٍ شعرية وانتاجية، فكل الامكنة داخل الموصل والتي وردت في قصائده (الحرة) اكتسبت جماليتها من ارتباطها بفنه الشعري ومن تسامي روح قصيدتهِ المحض.

إن السؤال عن المكان مرتبطٌ واقعياً بالسؤال عن الوجود الانساني في هذا الوجود الذي تحقق في ظل مكان كمكان الولادة من خلال الرحم الانساني، بوصفه مَكانا أولا ، ثم يتطور حسب التدرج الخَلقي الى ان يصبح مدينة متكاملة.

ولا ننسى أن المكان من اهم ملامح القصيدة العربية القديمة، وقد كان الوقوف على الأطلال في الجاهلية وظاهرة تعلق الشاعر بالمكان لهُما الاثر الكبير على جسد القصيدة . واتبعهم شعراء العصر الاسلامي ، ومن ثم الاموي والعباسي، إذ الشاعر يركز احساسه بالمكان من خلال ذرف الدمع ونزف الآلام وهو يرثي الفراق والضياع دون المكان الاصل.

تعريف المكان :

يُعَرفُ الفراهيدي المكان : ((المَكنُ، المكنُ بَيضُ الضّبِّ ونحوهِ ضبهُ والواحدُ : مَكَنةٌ والمكان في أصل تقدير الفِعل : مَفْعَل لانهُ موضِع، والدليل على أن المكان مَفَعلْ : ان العرب لا تقول : هو من المكانِ كذا وكذا إلا بالنصبِ.

وفي موضع آخر يقولُ ابن سيدة : المَكانُ، الموضِعُ، الجمعُ، أَمكِنةٌ وأقذِلةٌ، وأَماكِنْ جمعُ الجَمع))[١] .

وأما أصطلاحاً : ((المكانُ عند الحكماءِ هو السَّطحُ الباطنُ من الجنس الحاويْ المَمَاسُ للسطحِ من الجسمِ المَحوُيْ، وعندَ المتكلمين هو الفراغُ المُتوهَّم الذي شغلهُ الجسمُ، ويفقِدُ من أَبعادهُ . وكما يُقررُ (كانتْ) إمتثالٌ ضروريٌّ قلبيْ يقومُ أَساساً بكلَّ الغاياتِ الخارجية فلا يمكن تصورُ عدمَ وجود المكان، او اشياء في المكان)) [٢].

علاقة الشخصية بالمكان :

ان ادراك المكان هو ادراك مُتَّصل ((بالوجدان البشري إذ تكون العلاقة بينهما علاقة الطفل بأمه فكل منهما يحتاج الآخر، سواء أكان هذا المكان موطن الألفة لديه، أو هو مكان مفقود عندهُ وضائع)) [٣].

وقد إختلفت لغة الشعراء المعاصرين في الاداء، مما جعل للمدينة بعدها النفسي الذي يسيطر على قَصدِّية النص، اذ ((ان المدينة كموضوع، فكرة شديدة المعاصرة، ترتبط بالقرن

العشرين ومنجزاته، اذ ينطلق الشعر المعاصر من مفهوم حضاري في تصور جديد للكون والمجتمع والانسان بِفعلٍ من الثورة العالمية في مستوياتها الاجتماعية والفكرية والتكنولوجية))[٤].

وبشكلٍ ملفتٍ للنظر، يمكننا القول : أَن المدينة كانت كون شعري واسع في ثنايا دواوين شعراء العصرِ الحديث من السياب والبياتي ونازك، وصلاح عبد الصبور الى شعراء الجيل اللاحق عدنان الصائغ، وسعدي يوسف و معد الجبوري وغيرهم الكثير لايتسع المقام لذكرهم، إذ تسلَّل شعورُ الالتصاق بالمدينة على مدار تجاربهم الشعرية، إذ تقتضي الحداثة أَن يكون الشاعر معبراً عن تَصورٍ حديث للعالم وعلاقاته الانسانية ((بحيث تجاوز الواقع الى العمل، وتركيزِ جهود الانسان لِتَغيرِ العالم والمجتمع، فموضوع الفنِّ هو خلقُ النشاط الانساني، كما عبر عن ذلك أَحد النقاد)) [٥]، أُنظر كيف يصور الشاعر حيدر محمود شكل المدينة يوصفها كيانا آمنا:

أتذكرُ

بلداً كانَ ينامُ جِواري

يُحشُرُ في رِئتيْ أَنفاسَهْ

يَستَرخي

حينَ تُغلَقُ أَبوابُ الناسِ

يَغطُ بنومٍ آمنْ

يَنثُرُ في دربِ مَحبَتِنا إحساسهُ[٦].

المدينة الوطن والهُوية :

إن الوطنَ هو الهُوية، وليسَ الخريطة الجغرافية، ولا شهادة الميلاد، فهو المنفى في الداخل والاملُ في الخارج، هو يرى المدينة كفردوس مفقود، تناثر وأندثر بفعل مقصود عاشتهُ الموصل ،المدينة الاكثر دماراً وخراباً لتاريخيها الذي يمثل وجهَ العراق الحضاري والعلمي، فبذلك أَصبح الالم والحزن والفجيعة والخراب، مرادفاً للوطن، وقد اشترك معظم شعراء مدينة الموصل في هذه الدلالات المُجسِّدة لحجم الدمار والمعاناة كما يذكرها في قصائدهِ ... انهُ

العاشق الفاقد للحبيبة الاولى يبكيها وهو ابن السبعين بدموع سَخينة والمٍ مُرٍ وعَبراتٍ لاتنتهي من أول الديوان الى أخرهِ، موجةٌ من الصراخ بوجه الواقع المرِّ الذي أَتى على الغالي والنفيس ،يقول:

مُذ ايقضني عمري

مذ دبَّت في رئتي الانسامُ

وانسجمَ العالم في راسي

مُذ اودع وعيي في رأسي شِعري

كنت اراقبها.....

تاخذني ....

.....ونسيجُ

الموصل كانت في كفيَّ

وأنا في كفِّ الموصل

مريمُ كُنا....

.....ومسيح... (٧)

ولَعلَ تمثلات صور المدينة في شعر حيدر محمود تعد معادلًا موضوعياً للوطن، إذ يتداخل الفضاء الذّي يتحرّك فيه الشاعر، عندما تتفاعل فيه الاحاسيس العميقة التي تحرّك ذاته باتجاه هدفها، اذ تنفتح على فعالياتها المنتجة والدالة على الهوية الذات، والهوية الوطن.

يستلزم مفهوم الهوية العلاقة بالآخر. ويعني ذلك أن مفهوم الهوية يتكون في وقت مبكر جدا في الحياة ،لأن العلاقة مع الاخرين تبدأ منذ الولادة ،ولا معنى للهوية إلا في سياق يعيش فيه أشخاص آخرون.

تحَركني القصيدة وهي تكتبني

على جدران مَنفاها

على بلد تكَسر وهو يُولد في رؤاها

أُحاول أن الاحقها....

لاكتبُها....

تُسابقني

.....فاتبعها[٨]

علينا أن نعلم بأن هويتنا ليست جامدة وبأن اشكالها ليست نهائية وبأنها تحتمل أن تشمل على احوال وأشكال أخرى.

المشهد الإنساني لا يرتبط فقط برغباتنا أو إرادتنا إنما ايضا برغبات وإرادات اطراف أُخرى، إن الحياة تتكون من أشكال من الحركة والتغيير، لذلك فالهوية متحركة ومتغيره وكما قال محمود درويش: "لا أَخجل من هويتي، فهي ما زالت قيد التأليف. الهوية هي: ما نُورث لا ما نَرِث. ما نخترع لا ما نتذكر[٩].

الهوية هي مجموع الشارات والسمات، المميزات الخاصة لدى الإنسان التي يكتسبها ويطورها من خلال حياته منذ ولادته، من خلال العلاقات المتبادلة مع البيئة حتى يعي انه مخلوق منفصل عن الآخرين، أي بمثابة بطاقة تعريف للفرد والتي تعبر عن وجوده الانساني المحض في الحياة من خلال الوطن.

١-ثنائية الوطن / المنفى

يُشكلُّ الوطن في الشعر العربي المعاصر ثيمةً مكانية مهمة، وأن التقاطبَ المكانيِّ الذي ميزه هو ثنائية الوطن والمنفى، وما أشد غُربةَ الوطن داخِلَ الوطن، والعراقيون شعبٌ مبتلى يعيش هذهِ الظروف القاسية منذُ أمدٍ بعيد، إذ توالت عليه المصائب والنكبات وساسهُ الجَهَلَةُ وحكمهُ المتجبِرونَ بقوة السيف وبدستورِ الظلم والخديعة.

وكانت الكارثةُ الكبرى التي عاشها الجيلُ الحاضر، الحدَّ الفاصلَ بين الشاعر والوطن إذ انتهى الامرُ بهِ الى ان يجلسَ فوقَ رُكام الحضارة والتاريخ والجمال، فكان الشعرُ تعبيراً عن

الوطن المفقود الضائع في تشَكلاتٍ صورية لغويةٍ تُنشِطُ حركةَ الخيال وتُظهر مستوياتٍ متعدد للذاكرة التي تعرضتْ الى ازمة تاريخية عظيمة زلزَلتْ كيانَ الشعرِ والادب، إذ الأَمرُ خَرجَ عن سيطرة العقل ولم يبقَ من الذاكرة الجمعية إلا مجموعة انقاضٍ من التراب والحجر.

فيبدو أن الوطن أصيح في عداد الماضي، ولا ذكرى لهُ إلا في ضمائر الشعراء الذين وثَّقوا المشاهد المؤلمة كلٌّ حَسبَ طاقتهِ وذائقتهِ الثقافية.

إننا في الموصل نبحثُ عن أَشيائنا المفقودة، إذ تعرضت المدينة الى الدمار الكامل، إذ حَكم عليها الأَعداء بالاعدام وعلى أَهلها بالفناء، والاقتلاع القسري .

الشاعر (حيدر محمود عبد الرزاق) شاعرٌ موصلي من مواليد ١٩٤٢ في منطقة(باب جديد) المنطقة القديمة التي هي روح الموصل، بل هي المكانُ الذي يمثل الوطن بالنسبة للشاعر وهي مدينتهُ الفاضلة التي ما انفك يبكيها بسخينِ الدموع وعظمِ الفجيعة، إنهُ يرى أن وجهها قد تغيَّر، وجسدها قد أنهكتهُ الطَعَنات وابتذلتْ أَحوالها الرزايا وأَلاسقام، إنه يعيشُ في منفى حقيقي في لحظهِ غيابٍ تامٍ عن الوعي، إذ يقول في قصيدة (الموصل) :

الموصلُ مدرسَتي

بابٌ يَأخذُني لصِباي

لِحروفٍ اكتُبها بدِماي

يأخُذني ...

لِشتاءٍ ظالمٍ،

ولِصيفٍ مَلهوبٍ،

يأخُذني لقَميصي البالي

وَحِذائي المَثقوبِ.

والآنَ ...

البابُ جِدارُ

لم يَبعِدُ منَي الصرحِ الشامخِ اثارهُ

أَبحثُ حينَ أمرُّ بِها

عن بابِ الدارِ

البابُ جدارٌ

وأُحاولُ أَن أَعرفَ موقعهُ

كانَ هُنا ...

بل كانَ هُنا ...

وأَنا في شدّةِ حزني

أغمِضُ عَينيَّ اراهُ

أو أَصدُقُ بالقولِ اراهُ

أَرسمهُ ... (١٠)

إنهُ العاشقُ الذي فقد زمام الكرامة بعدما حلّ ببيتهِ (الموصل) ما حلّ من خراب ودمار، أنها في نظرهِ الثياب الجميلة التي أَتى عليها الدمار فجَعلها بهذا الحال المبتذل ... يبحث عنها في ذاكرتهِ التي تعرضت للتفكُّكِ والتدمير بكل اصرار واجرام.

ويرى الطفولة المنفية بالخيبات الفردية، اتسعت بخيبة املهِ في العودة الى تلكِ الديار فلا الدارُ هي الدارُ ولا الباب يوصلهُ اليها، اذن أَينَ هي الموصل ؟، فهو لم يجد غير الدمار والخراب والرعب على وجهِها المستباح.

وها هو الشَجَنُ يُؤطِّر أَطراف القصيدة ومعانيها، والشاعر يمتلكُ القدرة الفائقة على تصوير الاشياء بطريقة تراجيدية ... إذ يقولُ :

الموصلُ

أَعرِفُها

أَعرِفُ لونَ ملابِسها

وهدوءِ عوالِمِها

ورفيفُ طُيورِ منازِلِها

أَصواتُ منائرِها

أَعرِفها

خَرجَت من قَلبي المَثقوبِ

في اشراقةِ عينيْ

في دَمعي الساخنِ

والمَسكوبِ ... [١١] .

وكَانهُ يخاطب الطَلل، بل يُنزاحُ الموضوعُ من الخارج النصّي المؤلم الى داخلٍ نصيٍّ ليحقق مونولوجا يكرس ذهاب المكان وأندثارها، (وعلى هذه يقف الحاضر والماضي لقطبين متقابلين يحكُمان المكان فيمثل الاول ال (هنا) المخرّب ويمثلُ الثاني ال (الهُناك) الذي كان يؤمِّنُ السعادة، ثم يَنتهي جدلَ الحركتين القائم في مخيلة الشاعر الى طغيان الصورة الآنية، وسيطرة الحاضر بعذاباتهِ بينما يأخذ الماضي بأمكنتهِ في التلاشي والغياب)[١٢].

ويُصور الشاعر طبيعة منفاهُ الجديد، هذا المنفى في المكان ذاتها ، والذي أصابهُ التحول والتبدُّل وكأَن شاعر نُفِيَ من وطن الى وطنٍ اخر بأئسٍ ليس فيهِ أَي اثر لعهد الصِبا والشباب، ولا رائحة فيه تهبُّ من نسائمِ الاجداد الذين عاشوا بين هذا الجص والرُخام المتناثر، وكأن البلدة (الموصل) أمست غيرَ (الموصل) إذ يقول :

تُلاحِقُني القصيدةُ وهيَ تشخَبُ بالدماء

وتَصدمُني الهَواجسُ

والحَقائقُ وهي تغرقُ بالدماءِ

تُلاقيني المدينةُ لا تُكلِّمني

ولا تَدنو لأبصِرها

ولا تَمضِي تُودِعني

تُطلُ بطولِها المَهدودُ كالجدرانِ تُحزُنُني

ودَجلةُ جنبَها يَبكي

وصَمتُ مِياههِ تَحكيْ ... [١٣] .

إنه يمثل المدينة كاسيرةٍ مطعونة يسيلُ منها شلال دمٍ لا ينتهي، يعبِّر بها ضمير الشاعر في العمق عن الضياع الفعليٍ لذاتهِ التي هي (المدينة)، فتَقرأ عبرَ ذلك الضياع عباراتٍ يُذَكِّرُ بالمنفى الروحي والمكاني الذي يعانيهِ الشاعر،فيصفها (هي تغرقُ، المدينة، لا تكلمني ولا تدنو لأُبصرها، طولها المهدودُ، دَجلةَ، مياههُ)

إن دَجلةَ لديه اليوم هي دَجلة الغُربة الذي يشحن ذاكرة الشاعر بالصور، دافعاً إياه للتساؤل عن تلك المدينة أَينَ هي وكأنه لايعرفها، إذِ النزيف هذا يحدثُ لتَقابل صورِ الوطن بأحوالِ المنفى، هناك يسمع الشاعر أُغنية توقظ الذاكرة (المدينة) ، ولا يوجد مكانٌ مقابل

للشاعر يمكنه اللجوء اليه كبديل، بل هي الموصل والموصل هي حسب. أنه عاش في بيوتها، وأَنْ تعيشَ في تلك البيوت ؛ معنى أَنَّ لهذه البيوت معنىً، لأن البيت الذي ترعرع فيه الشاعر كتجربة هو على غرارِ بيوت (جيكور السياب) إذ تقودنا التجربة الى نقطة مهمة في مجال الكونية، اذ البيتَ هو رُكنُا في العالم، إنه كما قيل مراراً كونُنا الأَول، تحولٌ حقيقي بكل ما للكلمة من معنى، بل عنصرٌ أَساس في الشعر والرواية، إذ يمثل كثافة الوجود وبهجة الاشياء وما حولها من أسئلة الوجود.

إن قراءةً متانية لقصيدة الشاعر حيدر (الموصل متى تَدنو)،التي تُفصحُ مقاطعها عن تغيّر زماني قسري، وإن كان المكان ثابتاً لا يتغير، فهو دائماً (الشاطئ) الذي ترسو عليه الافراح والاحزان، إذ يجلس الشاعر في حيزّ النزيف وهو المكان المجازي الذي يُنبِّئُ القارئ بِمنفى المتحدث. وتتقابلُ صورُ المنفى، فهناك لايسمع الشاعر إلا الوجع، ولا يرى إلا الحزن ،إذ يقول:

أُناديها ..

مَتى تدَنَو من الشطآن نرسمُ وجهَ آتينا

تُواسينا،

ومن خوفٍ اذا يَسعى..

تُقَوينا؟

مَتى تنَدنُو من الموصِل[١٤]

هكذا إذن هو شعورُ الفَقد العام لهذه المدينة ، التي كانت تخفِف عليه آلامَ الحياة وخوفها، إنها في نظرهِ حُضن أُمٍ حنون خطفَها القدر في حينِ غفلة من اهلها.

فهذه الابيات تبدو أَكثر طفولةٍ ضائعة عاشها الشاعر، ((وتبدو لَصيقةً بمكان الولادة ومكان الطفولة اكثر من التصاقِها بالحيِّز الجغرافي الواسع الذي يشمل العديدَ من الامكنة، والذي نُسميه الوطن، وهي لذلك أَكثرُ شعرية)) [١٥].

٢-المدينةُ الرمز

إن الحديث عن الرمز والرمزية في الشعر وعلاقته بالامكنة، يتطلب منا توضيح مسألة مهمة متعلقة بماهيةِ الرمز ودورهُ في النص الشعري،((ولعلَّ معنى الرمز الادبي يتسع عن

معنى الرمز اللغوي، بحيث يتضمنهُ ويَتجاوَزه، إنهُ اداةٌ لغوية تحمل وظائف جمالية عندما تسهم في تشكيل هُوية وتجربة الشاعر على نحو مؤتلف مع مكونات النص)) [١٦].

والرمزُ في الأَدب قد يوصفُ بكلمة واحدة، أو بتراكيب لغوية تتجاوز اللفظة الواحدة، وقد تحمل تلك التراكيب دلالات اجتماعية او سياسية او تاريخية، أو أسماء أشخاص أو أماكن او اسم او مدينة او قرية ،ما تحول تلك الاسماء الى رموز أدبية مُحمَّلة بتجربة الشاعر، فتنهض الفاعلية . ولا شك أن الرمز (كلفظة) لا تتعلق بمدلولاتها المحسوسة الواضحة للعَيان ، بل يكمن أهمية الرمز الشعري في قدرة الشاعر على تحويل تلك الاشارات والاسماء والاماكن الى معانٍ مرتبطة بالتجربة الخاصة به.

ومن خلال قراءتي للنماذج الشعرية في ديوان (محمود) لاحظتُ أَن اشتغالات الرمزية تلعب دورها الاساس والفعَّال في بناء النص المكاني، وعنده المدينة أَشكالٌ متعددة، فقد يتكرر الرمز دائماً في هذا الديوان فكانت المدينة وأَهمُّ ازقتها، ومناطقها القديمة وأثارها الحضارية، فهو كثَّف تلك الرموز وكررّها بتَكرارهِ لصور النزوعِ الى حالة الالم المُستمر الذي يحمل الواناً عدّة.

وأَحسبُ أنهُ أَحسنَ في تصوير إحساسه بالمكان عامة (الموصل) بما فيها أَزقتها ورياضهاٍ وجسورها ونهرها ومرافِق أَرزاقها، اذ يوردُ في قصيدة (الموصل في احضان النور) مرمِّزا :

لو يأخُذني الجسرُ الى (الكَبّ)
مدهوشاً بالنهرِ
وبالصَخبِ
لو زَينَني نُورُ الربِّ
لم أَبلُغْ وجه المَوصل
أتنشقُ عِطرَ جدائِلها
أَلهو بَينَ أَزقتِها
أَتَقَوى بالرُكنِ الثابِتِ في أَسوارِ أَرُومَتِها
أَينَ الموصلُ؟
هبَّتّ أَشجانُ العصرِ عليها
وأَزاحتها عن مَرقدها[١٧]

إذْ تحيلُ هذه الأَماكن (الجسر، الكَبْ، النهر، الموصل، الازقة، الركنِ الثابتِ، المرقد) الى رموزٍ شعرية عند (حيدر محمود) وهذه الاسماء والاوصاف تتكررُ وبشكل ملفت للنَظر، إذ ترتبط هذه الرموز دلالياً ومعنوياً وواقعياً بالموصل كوعاء كبير وهوية تتسع لكل انواع الامكنة والحضارات فهي المدينة التاريخية التي وصَلت الشرق بالغرب في التجارة والحروب، إذ تُعبِّر هذه الرموز عن انعكاسات دهشة الشاعر وحنينه للاميرة المفقودة التي لا مثيل لها على وجه الارض طُهراً وجمالاً ورشاقة ،وبكل ماتحتوي من الرموز الثانوية الاخرى التي اوردها.

اذ يقول أخيرا:

لو طوّفتُ بكلِ بقاعِ الارضِ

فلن القى سيدةٍ

يَتباهى البيتُ

بطُهرِ سَريرتها ، وبسطوتِها

وضَراوةِ وقدتِها ورشاقتِها[١٨].

إن هذه الرموز الانفة ،لا تعني دلالتها الحرفية واللغوية المشعة حسب ،بل تتجاوز تلك الدلالة الى اهل الوطن (الموصل) الاقحاح في نقاء وطهر سريرتهم ولعل النهر (دجلة) هنا يؤدي دورا مزدوجا، فهو يرمز للوطن كله ،اذ هو الرمز الكبير، وأُخرى كونه ثيمةٌ رابطة تحتضنها الموصل اذ يتوسطها فيطل عليها وتطل عليه كل يوم ،بقدر ثابت يمثل رمز الطهر والنقاء والنماء ،الذي سقى اما مرت به وتعافت وتمتعت بجمال الموصل وبيوتها الاصيلة . وكذلك لفظة (الكَبْ) الذي يرمز فيه الشاعر الى وفرة خيرات المدينة ...ليشير بالصورة الاخرى ان هذه المدينة بلدة طيبة ومباركة ورزقها وافر على الدوام لا يكاد ينفد ابدا .واسترسل الشاعر في ذكر الاماكن على انها اماكن مفقودة اليوم بعد الدمار...يبحث عنها ..يتساءل عنها) اين الموصل..؟!)،انه يسمع اصواتاً عميقة في ذاته، تخترق ذاكرته منذ عهد الصبا، لتنقله الى ذلك العالم الذي امسى بعيدا مفقودا، ليجسد بذلك حالة الضعف والضياع والتشظي .اذن وعلى هذا يمكننا القول ان الرمز ((هو رؤية شعرية ذاتية تعيد تشكيل الواقع وصياغته)) [١٩].

٣-المدينة عنوانا ومتنا

ان قوة الرابط الدلالي بين العنوان والمتن تحفز دوال عنوانات المتن ونصوصه على الافصاح عن ذاتها دون الحاجة الى استبطان، او تأويل، او مماحكات نقدية عميقة ،فالشاعر في ديوانه هذا يبني النص على تطابق تام بين ذاته ونصه تماما.

وكما مر انفا، اذ الشاعر هو الموصل والموصل هو، هوية ورمزا.. ذوبان للانا في الاخر من خلال النص

. العنوان بوصفه حاملاً دلالياً لما في داخل النص فهو بذلك ((يمثل متنه الشعري ويحيل اليه)) [٢٠] ولا اغالي ان قلت: ان حيدر محمود اشتغل على العنوان الكبير والدال الاول (انا والموصل) وعلى جميع ما في المتن من قصائد، فالموصل كانت حاضرة في كل المتون النصية الواردة تقريبا ، مما حدانا ان نبحث في هذا العنوان كفضاء كبير يمكن للمتلقي وببساطة ايجاد العلاقة الحميمية وقبولها مباشرة، فالتطابق فعلي وعملي.

وعند مطالعتنا لنصوص الديوان وعنواناتها نجد (الموصل ، قليعات، دجلة ،الموصل الصخرة ، الموصل تشهد ،الموصل الحمامة، الموصل متى تدنو، الموصل في احضان النور...) هذه العنوانات المباشرة والواقعية التي لا تنزاح الا الى مرجعيات حضارية ومَدِينية تمثل مدينة الموصل حصراً بعنوانها العتيق (الموصل) والفرعية التي تتضمن مناطقها : (قليعات ، باب جديد ، الكَبْ، دجلة ، المنارة، الجسر) والتي تُعنونُ نفسها وتفصح عن أَجزاء المدينة الام .

فهو يتناص مع عنوان الديوان مباشرة داخل المتن الشعري ليعطي القصيدة الاولى عنوانه الكبير (الموصل)، اذ يقول :

الموصل جنة

من يعرف حُزن الجنّة

الحجر المتداعي في قُبَتها

الصوتُ المبحوحُ بلوعتِها

الثوب المخروقُ بقامتِها

من اصدقُ من هذا التاريخُ القابعُ

في صمتِ ازقَتها..؟

مَن اكبرُ من هذهِ المحنةَ؟[٢١]

حتى يقول :

الموصلُ داري

او حبُّ الدار

الموصلُ كلّي جيثُ انادِمُ ربعي[٢٢]

في هذه الاصوات الموزعة في ثنايا القصيدة مباشرةٌ وعميقة تبتغي الافصاح بتركيز صورة العشق الذاوي في ذات الشاعر، اذ إنه مارس التناص المباشر مع عنوان القصيدة دون اي مرجعيات اخرى غير مرجعية المدينة الموصل العتيقة .

فواضح من العنوان بوصفه نصا مستقلا حضور شخصية الشاعر المندمج بالمدينة روحا وجسدا، فهو لا يتحدث بوصفه ذاتا مجهولة او متخيلة ، بل ان الانا اناهُ بقوله (الموصل كلي) ، اذن هو الاندماج والذوبان في صورة المدينة وروحها على مستوى الدوال جميعا.

((العنوان اشارة سيميائية مشفَّرة تواجه القاريء قبل دخوله الى عالم النص ،تلحُّ عليه بالوقوف وفك شفرتها وقراءة النص في ضوء ما تدلي به هذه الشارة من دلالة قد تتوافق او تتقاطع اوحتى تشوش على الدلالة العامة للمتن)) [٢٣].

إن اختيار الشاعر لعنواناته لاتتاتى من فراغ ، فالشاعر بوصفه مبدعا ومثقفا يحمل ذاكرة وملكة تمكنه من ادواته الشعرية عامة والعنوانات خاصة ،والعنوان والعنونة عملية غاية في الصعوبة، اذ ان العمل النصي يحتاج الى عنوان جامع بانزياحاته وتوليفاته المقطعية والكلمية لما قد يأتي خلال النصوص ، والاصعب اختيارا اسماء المجموعات كما يصرح بذلك الكثير من الشعراء والكتاب المعاصرين .

وكان الامر لدى شاعرنا (حيدر محمود) اختيار القصائد التي عنونت نفسها ،فالموصل كلفظة (أُم) يتولد عنها الكثير من التفرعات التي لا تصعب على الكاتب ايرادها، والقاريء على قبولها ...فهي فسيفساء تتشكل كعُقد متعدد الجواهر ..لفظة تستدعي المباشرة في ديوان كله رثاء وبكاء على المدينة، وكان للانا والاخر الحيز الكبير من الحوار والافصاح داخل وخارج النص بوصفه منجزاً ابداعياً(انا /الاخر)..(انا والموصل) .

إذ إَن الحديث في داخل المتن النصي كان حديثا داخل نص كبير مدمج بعنوانة رهينا بما يمنحه النص من مقاربات تأويلية لا تذهب بعيدا عن عنوان الديوان ايضا.

اما التناص الذاتي فهو ((اعادة الشاعر نفسه في نصوص لاحقة لنصوصه السابقة ، سواءً بصيغ التعبير او الالحاح على بعض المعاني والافكار ، ويبدو ان من اسباب ذلك انتاج الافكار وبشكل دائم واكثر فنية ، او لموقف يستثير موقفا مشابها للنصوص السابقة ولغير ذلك من الاسباب)) [٢٤] .

وهو كذلك يستثير القصيدة الاخيرة كخلاصة لقصائد الديوان ،فيها يصور معاني الشيخوخة والضعف الذي اصابه ومدينته في الآن، شحن بها صور احوال المدينة بعد دمارها، وقد اعطى قصائده عنوانات ذاتية ، تشخصها الدلالة التي تستدعي التأمل في داخل النص، والبحث عن العلاقة .

فيُعنونُ قصائده الاخرى :(امانينا ، صوت، باحة البيت، انذرتكم وتسخرون ، سطوة الانتظار ، تحولات الخوف، عربات العمر..)، كل هذه العتبات العنوانية دوال تنزاح الى معطيات استعارية تتجول في دقائق المكان لتبدي للقاريء حجم المفارقة التاريخية التي اصابت المدينة بحيث غيرت شكلها وصورتها واحوالها تماما ،وكما تغير هو ايضا ولذات الاسباب ، اذن هو يبوح لنا في اخر قصائده (عربات العمر) والتي جعلها كعربات القطار المتوالية بابعاد مجازية مبهرة فيقول:

أَينَ غابَ العُمر ؟

وباي المحطاتِ عِفتُ العُمر ؟

وصلت عرباتُ القطارِ

وبها وجلٌ كنتُ اجّلتُهُ

وهواجسُ مخلوطةٌ بالأَسى ، ودموعُ الفراقِ[٢٥]

هذه العربات والتي جعلها الشاعر كعبارات دالة داخل نص ليس له مرجعيات تاريخية او دينية او سياسية، قدر ما هو محمول على الذات ...بكل الآمها وأَساها، وقد قسم عمرها على عربات القطار بمعنى انه لخص الحياة وذاته في الديوان في هذه القصيدة، وهذا يعني ((امكانية قراءة عدة نصوص من خلال نص واحد ،اعتمادا على حصافة القاريء وقدرته ودقة وعيه والتراكم المعرفي لديه)) [٢٦] .

فقسَّم القصيدة الى عربات كان اخرها ذهاب المدينة وعمره على السواء ، فكانت العربة الاخيرة يقول فيها:

أَوَصلَ العمر الى غايتهِ
وأنفَضَّ جمعُ ذلك المَكان
وغابَ عمرٌ كان في زمانْ ؟
هذا انا
قد وصلت عربتي
متعبةٌ
أجُرُّها بنفسي(٢٧)

فكانت المدينة بهذا المشهد الرهيب البائس لآخر عربة ...ليُحمِّل هذه المفارقة الصارخة أسباب الهزيمة ،التي لم يكن هو والموصليين طرفا فيها...فربما يحفز القصيدة الاخيرة كعامل مساعد على استعادة الثقة بالنفس، او الهزيمة الى المدينة الحلم.

الإستنتاجات

١-الحديث عن مكانية النص وزمانيته في الشعر لهو عملية دمج وتفاعل ،اذ يدرس الاول عبر الثاني ،وتساعد العلاقات المكانية على مقاربة الزمن في النص الشعري والقبض على خصائصه ومدلولاته.. رابطين بين النص بوصفه شكلا بصريا ، وبين تلقيه وتذوقه كما اشرنا سابقا، اذ ان الكلام عن مكانية النص الشعري هو تقصٍ لكل عناصر التواصل، والتي تسهم في تشكيل صورة النص على الصفحة الشعرية .وتبقى الموصل بوصفها مكانا وهُوية، هي ضحية لزمن أَساء الى كينونتها وجمالها، ليجسِّمها الشاعر في مسرحه الرثائي بضخِّها بالرسوم والصور الباذخة في التأمل والمؤثثة بالب[1]ياض والسواد.

٢-المعانات التي عاشها الشاعر حيدر محمود خلقت نوعا من الآصرة الوجدانية بين الشعر من جهة ، والشاعر والمكان بوصفه منفى كبيرا من جهة ثانية، اذ تثير الاماكن المدمرة الشجن، وبخاصة اماكن الطفولة الاولى.

فعندما يستذكرها في القصيدة تصبح المحفز والمعين الذي لا ينضب في رفد خيالاتنا كقراء بصورة جميلة ورائعة، وهي كذلك مصدر الدهشة الاولى ،وملاعب الصبا والجمال، إذ يبقى الفنان الحقيقي يحاكي بفنهِ تلك الاماكن كرموز مركزة في الذاكرة، ويصورها اصدق تصوير

على مراحل حياته المختلفة...وتمسي اخيرا المدينة فردوسا مفقودا يحفها بالمراثي والثبور بعد فقدانها في ذاته العميقة.

٣-يجسد الشاعر حالة السمو عندما يبحث عن الكمال سواء في ذات المعشوقة (المدينة) اوفي نصه الشعري ،والشاعر (حيدر) يبحث عن حلمه الضائع المبعثر المفقود، الذي ضاع في زمن الخسارات ، والظلام ، وهو يمنح ماتبقى من العمر سواءً الزمني او الفني (الشعري) في لعبة المتضادات الحياتية تلك ،ليتلاشى العمر في شمولية الفيض البشري السرمدي ،جاعلا من الفناء أَزلاً مؤجلاً الى حين .

٤- البناء اللغوي للنصوص بناءٌ مبسط لأي قاريء ،إذ انه يخلو من اللعبة اللفظية والمعجمية اليتيح لكل الشرائح المتنوعة الاطلاع على حجم الجريمة، بل عوض ذلك بالعمق التأملي وهو يعالج موضوعه بلغة سلسة واضحة، وبسبك درامي من خلال بحور البسيط والوافر والرجز الذين وفروا جوا ايقاعيا خدم النصوص وسرَّع وتيرة انسياب الجمل الشعرية .

Abstract

International Conference of the College of Education for Humanities

The image of the city in the Diwan of I and Mosul by the poet Haider Mahmoud Abdel Razzaq.

Assistant teacher Ghassan Aziz Rashid
University of Mosul
College of Education for Humanities

Our study of the city in the poetry of the poet Haider Mahmoud is not limited to describing the city with its traditional, well-known character, but the study tends towards the effectiveness of the city as the same as the poet lives and meets with it as a cultural product that is consistent with the poet's sense of more accurate and deeper details. The city of Mosul, and this word is not possible from very ancient civilizational and cultural references ... it represents the poet the entire country and all its details. And in her human being ... The study also shows the ability of the city as a social place in which the conditions of the human self fluctuate and what it bears with the emotions and feelings of the volatility of its threatening existential situation throughout the ages. The poet Haider Mahmoud focuses his enormous emotions on lavish artistic images in painful contemplation

in the reality of the city that is considered the cradle, the mother, the land of the sun and beauty ... and he looks at its ruin in the new dark era ... by the barbarians of the new world. The research consists of several axes ... an attempt by the researchers to approach the texts critically as recipients of the text, looking for beauty areas in it ... through the introspection of the poet and the same city.

الهوامش

(١) كتاب العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، تح : عبد الحميد هنداوي، باب الميم، (م – ك – ن) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣، مج ٤: ١٦١.

(٢) البعد الزماني والمكاني واثرهما في التعامل مع النص الشعري، سعيد بن محمد بوهراوة، دار النفائس، دار الفجر، عمان – الاردن، ط١، ١٩٩٩: ٢٢-٢٣.

(٣) ينظر، تنمية المدينة في الخطاب الشعري، أحمد قيطون، عمار حلامة، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد ٦،٢٠١٦ : ٦٢ .

(٤) المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي ابو غالي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٩٦، ١٩٧٨: ٧١.

(٥) اوراق في الرياح، اودونيس، دار العودة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧١: ٦١.

(٦) ديوان انا والموصل ،د.حيدرمحمود عبدالرزاق ،دارنون للطباعة والنشر، العراق،الموصل، ط٢، د،ت: ٣٤.

(٧) ديوان انا والموصل : ٩.

(٨) ديوان انا والموصل : ٤٤.

(٩) الهويات القاتلة. قراءات في الانتماء والعولمة، معلوف، أمين، ترجمة: نبيل محسن.– دمشق: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع.١٩٩٩ ،٧٦.

(١٠) ديوان أَنا والموصل: ١٥-١٦ .

(١١) الديوان: ٢٢ .

(١٢) بلاغة المكان، قراءة في مكانية النص الشعري، فتحية كحلوش، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨: ٧١ .

(١٣) الديوان : ٥١ .

(١٤) الديوان : ٧٤ .

(١٥) بلاغة المكان، قراءة في مكانية النص الشعري: ١٦٨ .

([١٦]) جماليات الاسلوب والصورة الفنية في الادب العربي، فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت– لبنان، ١٩٩٠: ١٧٥ .

([١٧]) الديوان: ٧٨ .

([١٨]) الديوان : ١ .

([١٩]) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح احمد ،دار المعارف ،القاهرة، ط٢ ، ١٩٧٨: ١٢٧.

([٢٠]) سيميائية العنوان: ٨٩.

([٢١]) الديوان: ٧ .

([٢٢]) الديوان: ١١ .

([٢٣]) سيميائية العنوان ، بسام موسى قطوس ، وزارة الثقافة ، عمان – الاردن ، ٢٠٠١ : ٥٧.

([٢٤]) التناص انماطه ووظائفه في شعر محمد رضى الشبيبي، علي متعب جاسم ، كلية التربية، جامعة ديالى ، مجلة واسط للعلوم الانسانية ، م٢، ع١٠، ٢٠١٢ :٣٩ .

([٢٥]) الديوان: ١٠٢ .

([٢٦]) الذنب والخرافة المهضومة، داؤد سالم الشويلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، د.ط، ٢٠٠١ : ٢٦ .

([٢٧]) الديوان: ١٠٣ .

قائمة المصـــادر

- اوراق في الرياح، اودونيس، دار العودة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧١.
- البعد الزماني والمكاني واثرهما في التعامل مع النص الشعري، سعيد بن محمد بوهراوة، دار النفائس، دار الفجر، عمان – الاردن، ط١، ١٩٩٩.
- بلاغة المكان، قراءة في مكانية النص الشعري، فتحية كحلوش، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨.
- التناص انماطه ووظائفه في شعر محمد رضى الشبيبي، علي متعب جاسم، كلية التربية، جامعة ديالى، مجلة واسط للعلوم الانسانية ، م٢، ع١٠، ٢٠١٢ .
- تنمية المدينة في الخطاب الشعري، أحمد قيطون، عمار حلامة، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد ٦،٢٠١٦ .
- جماليات الاسلوب والصورة الفنية في الادب العربي، فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت– لبنان، ١٩٩٠.

- ديوان أَنا والموصل، د.حيدر محمود عبد الرازق، دار نون للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، الموصل، ط٢، د.ت .
- الذنب والخرافة المهضومة، داؤد سالم الشويلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ط، ٢٠٠١.
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح احمد، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨.
- سيميائية العنوان، بسام موسى قطوس، وزارة الثقافة، عمان – الاردن ، ٢٠٠١ .
- كتاب العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، تح : عبد الحميد هنداوي، باب الميم، (م–ك–ن) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣، مج ٤.
- المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي ابو غالي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٩٦، ١٩٧٨.
- الهويات القاتلة. قراءات في الانتماء والعولمة، معلوف، أمين، ترجمة: نبيل محسن.– دمشق: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع.١٩٩٩ .